الصناعة في الشعر العربى[1]

البلاغة من نظم ونثرلها غرضان ـ غرض فنى وهو مابها من الجمال الذى يدعو الى السرور والاعجاب وارتياح النفس الى المعانى الجزلة ، والالفاظ المختارة ، وتناسق العبارات ، وحسن الاساليب ، وتأنق التراكيب ، وغير ذلك مما ذكره العرب ونقادهم من أنواع المعانى والبيان والبديع . ويدخل فى هذا النوع قدرة الكاتب أو الشاعر على الافتنان فى الصناعة ، ومقدارما له من التصرف فى الكلام ، وما يدركه من اسرار هذ الفن مما يدل على عبقريته وهذا الجزء الفنى من البلاغة هو احد اركانها واكبر دعائمها . اذ بدون ذلك لاتعد البلاغة من فنون الجمال فى شىء .

والغرض الثانى هو الحقيقة المنطوية فى غضون ذلك الكلام التى يكشف بها الفنى عن كثير من المعانى الخفية فى النفوس واسرار الكون وحقائق الموجودات والاراء الاجتماعية والفلسفية وصور الانسان والانسانية . فغرض الكاتب أو الشاعر البليغ ، أن يتسرب فى النفوس ويستولى عليها بجمال الافتنان ، وينعشها ويوقظها باساليبه وبيانه ، ويهذبها بمعانيه وما فيها ، ليرشدها الى حقيقة من الحقائق الانسانية . ولقد يدرك الفنى مالايدركه غيره ، لانه دقيق الادراك ، قوى الملاحظة

---

(١) من فصل فى الكلام على الشعر فى الاندلس مقتطف من الدروس التى القيت في الجامعة المصرية

سريع الخاطر ، تخترق نفسه الحجب فيرى مالا يراه غيره . لذلك يمكن أن يكون الفنّ مساويا للفيلسوف فى الافاضة على الانسان من اسرار الكون وحقائقه

ولو اننا بحثنا في نفوس شعراء العرب من خلال شعرهم وفنون القول لديهم لوجدناهم فنيين اكثر منهم حكماء أو خلقيين أو اجتماعيين . نريد بذلك انهم يميلون الى جمال القول ويقصدون الى حسن العبارة . والباس المعانى لباسا بهيجا والى الاستيلاء على النفوس بسحر الكلام ، وبالاسلوب الخطابى اكثر من كل شيء . هذه وجهتهم أوغرضهم من قول الشعر . حتى لتجدهم كثيرا ما يقصدون الى التشبيهات الدقيقة الغريبة ويبحثون عن ذلك فى اركان الطبيعة وانحاء الموجودات ليشبهوا بها العواطف ومكنونات النفوس . وقد اجهدوا انفسهم قليلا أو كثيرا في ذلك فاضطروا أحيانا الى ورود موارد التكلف والتصنع ، لا يقصدون من ذلك اعجام القول أو اخفاء المعانى ، بل حسن البزة فى التعبير ، لان من طبيعتهم حب الالوان الباهرة حتى فى الكلام . ربما يعلل الاجتماعيون ذلك بما في أصول نفوسهم من الانخداع بالظواهر والاكتفاء بها عن التعمق فى أصول الاشياء . ولكن مهما يكن من شى فى هذا فان الشعر العربى فى جملته يقصد الى تحريك النفوس وإطرابها وارقاصها اكثر من تربيتها وارشادها ووعظها

لهذا برع العرب في الافتنان فى التعبير والاسلوب براعة لا تكاد تجارى ، وأمعنوا فى الصناعة واجهدوا أنفسهم فى تصوير الاشياء الى

كانوا يرونها أو يشعرون بها وهم يتبعون فى ذلك ظواهر الامور فاقتصروا على وجهة الجمال والافتتان أو كادوا يقتصرون على ذلك ثم ظن كثير من النقاد والادباء أن البلاغة فى النظم والنثر هى من باب التسلية والاعجاب فكان الميل الى المجون كثيرا ، ولا سيما فى مجالس الأدباء وقد ظهر هذا باحلى مظاهره فى بلاد الاندلس لميل الامراء والخلفاء والكبراء الى ذلك واختطوا من هذا الطريق طرق الازجال والموشحات وكاد الشعر يقف فى موقف أقرب الى الهزل منه الى الجد

على أنه كاد فى خوار هذا بعض الشعراء الأتقياء الذين جاءوا فى شعرهم بالمواعظ والعبر ، حتى كان ذلك فى بعض الموشحات . غير ان الصبغة العامة كانت صبغة تسلية ومجون .

وكذلك كان ذوق العرب وقراء العربية أو محبى الشعر العربى . وفي هذا السبيل أيضا يسار النقاد وأهل الادب . فتجد الناقد أو الاديب أكثر ما يميل الى التشبيه بالشمس والقمر والكواكب والماء الزلال والخمر . وتجدهم يميلون الى انشاء ذلك فى المجالس والمحافل وجمعها فى مذكراتهم ورءوسهم ووضعها فى منتخباتهم وكتبهم حتى صار ذلك علما على الادب الادباء : وفي الحق أن هذه الموضوعات الوجدانية تستوعب أكثر أنواع الشعر العربى (أورد أبو الوليد اسماعيل بن محمد الشقندى القاضى الاديب المتوفى سنة ٦٣٩ أنواعا من الشعر لاشهر الشعراء فى رسالة يعارض بها ابا يحيى ابن المعلم الطنجى

فى تفضيل الاندلس على العدوة وكان ذلك فى حضرة ابي يحيى بن أبى زكريا صاحب سبتة(١)

ولقد يجد القارىء فى موضوعاتهم التى نظموا فيها الشعر غير الافكار الوجدانية البحتة شيئاً من الحكمة والفلسفة والتأمل في الكون والنظر فى حوادثه وهم فى هذا يحومون بعد حول المعنى الاجتماعى العظيم أو الفكر الناضج الفلسفى ثم يرجعون اليك فى كلامهم بعرف ضئيل لاتكاد تتمتع بشذاه حتى يضمحل ويفنى وتذهب ريحه . فاذا ذكر الشاعر منهم معنى اجتماعيا أو فلسفيا ذكره فى بيت أو بيتين . على انهم تكلموا فى الاشياء التى تمت الى الفلسفة أو الاجتماع بقرابة ما كالزهد فى الدنيا والحياة الاخرة الخالدة والموت وقربه من الانسان والجنة والنار والنار والكلام فى القضاء والقدر (٢)

---

(١) راجع هذه الرسالة فى نفح الطيب طبع أوروبا جزء ٢ صحيفة ١٢٦

(٢) كقول بعض الفقهاء والزهاد

شرد النوم عن جفونك وانظر حكمة توقظ النفوس النياما
حرام على امرئ لم يشاهد حكمة الله أن يذوق المناما

وكما قال بعضهم

ليس فى المرء اختيار في الذى يتمنى من حراك وسكون
انما الامر لرب واحد ان يشأ قال له كن فيكون

وربما كان نظم هذه الافكار لايعد من أنواع البلاغة فى شىء لانها خالية من كل جمال فهى كالحقائق العريانة حتى ان هذا ليمنع الانسان من تذوق المعنى لشدة تبذله كقول الشاعر

ولكن هذا ليس من الشعر فى شئ ولذلك وجدهم يقعون فى ذكر المعانى المبتذلة التى هى من معانى العوام المعروفة للصغير والكبير وان كانت من أصح الحقائق وأصدقها كما تقول السماء فوقنا والارض تحتنا . ولو ان الشاعر وصل الى ستر هذا التبذل بشئ من الصناعة أو جمال القول لساغ لنا تذوق هذا الكلام . وربما كانت هذه لمعانى جميلة لو انها قيلت على لسان شاعر متفنن فى هذا النوع . لان الرجل الواسع التصور كثير التصرف يمكنه ان يجعل المعنى المعروف شيئا جديدا . حتى لقد يخيل الى القارىء ان في كلمة معنى . وربما بلغ العرب شأوا من ذلك ولكن فى المعانى الوجدانية من مدح وذم وحب وعتب ووصف وما يشبه ذلك ؟

احمد ضيف
الاستاذ بالجامعة المصرية

التربية الحديثة في الاسلام

مقالة ظهرت فى ملحق التيمس الخاص بالتربية بتاريخ ١٠ فبراير سنة ١٩٢٣

ظهرت فى الوجود جامعة « اليجارة » الاسلامية فى آخر

بأربعة أرجو نجاتى وانها لاكبر مذخور لدى وأعظم
شهادة اخلاص وحبى محمدا وحسن ظنونى ثم انى مسلم
(راجع تفح الطيب طبع أوروبا جزء ٢ صحيفة ١٥١ و ١٥٢)